

صيد الخاطر

71 - - فصل : أهل البدع و التشبيه .

اعلم أن شرعنا مضبوط الأصول محروس القواعد لا خلل فيه و لا دخل و كذلك كل الشرائع .
إنما الآفة تدخل من المبتدعين في الدين أو الجهال .
مثل ما أثر عند النصارى حين رأوا إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام فتأملوا الخارق
للعادة الذي لا يصلح للبشر فنسبوا الفاعل إلى الإلهية .
و لو تأمل ذاته لعلموا أنها مركبة على النقائص و الحاجات و هذا القدر يكفي في عدم صلاح
إلهية فيعلم حينئذ ما جرى على يديه فعل غيره .
وقد يؤثر ذلك في الفروع مثل ما روي أنه فرض على النصارى صوم شهر فزادوه عشرين يوما ثم
جعلوه في فصل من السنة بآرائهم .
و من هذا الجنس تخبيط اليهود في الأصول و الفروع و قد قارب الضلال في أمتنا هذه المسالك
و إن كان عمومهم قد حفظ من الشرك و الشك و الخلاف الظاهر الشنيع لأنهم أعقل الأمم و
أفهمها .

غير أن الشيطان قارب بهم و لم يطمع في إغراقهم و إن كان قد أغرق بعضهم في بحار الضلال
فمن ذلك أن الرسول صلى الله عليه و سلم : جاء بكتاب عزيز من الله قيل في صفته : { ما
فرطنا في الكتاب من شيء } و بين ما عساه بشكل مما يحتاج إلى بيانه بسنته كما قيل له :
{ لتبين للناس ما نزل إليهم } فقال بعد البيان : تركتكم على بيضاء نقية فجاء أقوام فلم
يقنعوا بتبيينه و لم يرضوا بطريقة أصحابه فبحثوا ثم إنقسموا .

فمنهم : من تعرض لما تعب الشرع في إثباته في القلوب فمجاه منها فإن القرآن و الحديث
يثبتان الإله D بأوصاف تقرر وجوده في النفوس كقوله تعالى : { استوى على العرش } و قوله
تعالى : { بل يداه مبسوطتان } و قوله تعالى { و لتصنع على عيني } و قول النبي صلى الله عليه
عليه و سلم : [ينزل الله إلى السماء الدنيا و يبسط يده لمسية الليل و النهار و يضحك و
يغضب] .

كل هذه الأشياء - و إن كان ظاهرا يوجب تخايل التشبيه فالمراد منها إثبات موجود فلما
علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهيمات عند سماعها قطع ذلك بقوله : { ليس كمثله شيء } .
ثم إن هؤلاء القوم عادوا إلى القرآن الذي هو المعجز الأكبر و قد قصد الشرع تقرير وجوده
فقال : { إنا أنزلناه } { نزل به الروح الأمين } { فذرني و من يكذب بهذا الحديث } { و
هذا كتاب أنزلناه } و أثبتته في القلوب بقوله تعالى : { في صدور الذين أوتوا العلم } و

في المصاحف قوله تعالى : { في لوح محفوظ } و قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو] .

فقال قوم من هؤلاء : مخلوق فأسقطوا حرمة من النفوس و قالوا : لم ينزل و لا يتصور نزوله و كيف تنفصل الصفة عن الموصوف و ليس في المصحف إلا خبر و ورق ؟ فعادوا على ما تعب الشرع في إثباته بالمحو .

كما قالوا : إن الله ليس في السماء و لا يقال إستوى على العرش و لا ينزل إلى السماء الدنيا بل ذاك رحمته فمحوا من القلوب ما أريد إثباته فيها و ليس هذا مراد الشرع . و جاء آخرون فلم يقفوا على ما حده الشرع بل عملوا فيه بآرائهم فقالوا : الله على العرش و لم يقنعوا بقوله : { ثم استوى على العرش } .

و دفن لهم أقوام من سلفهم دفائن و وضعت لهم الملاحظة أحاديث فلم يعلموا ما يجوز عليه مما لا يجوز فأثبتوا بها صفاته و جمهور الصحيح منها آت على توسع العرب فأخذوهم على الظاهر فكانوا في ضرب المثل كجاء فإن أمه قالت له : إحفظ الباب فقلعه و مشى به فأخذ ما في الدار فلامته أمه فقال : إنما قلت إحفظ الباب و ما قلت إحفظ الدار .

و لما تخيلوا صورة عظمة على العرش أخذوا يتأولون ما ينافي وجودها على العرش مثل قوله : [و من أتاني يمشي أتيت هرولة] فقالوا : ليس المراد به دنو الإقتراب و إنما المراد قرب المنزل و الحظ .

و قالوا في قوله تعالى : { إلا أن يأتيهم الله في ظلل } : هو محمول على ظاهرها في مجيء الذات فهم يحلونه عاما و يحرمونه عاما .

و يسمون الإضافات إلى الله تعالى صفات فإنه قد أضاف إليه النفخ و الروح . و أثبتوا خلقه باليد فلو قالوا خلقه لم يمكن إنكار هذا بل قالوا هي صفة تولى بها خلق آدم دون غيره .

فأي مزية كانت تكون لآدم ؟ .

فشغلهم النظر في فضيلة آدم عن النظر إلى ما هو يليق بالحق مما لا يليق به .

فإنه لا يجوز عليه المس و لا العمل بالآلات و إنما آدم أضافه إليه فقالوا : نطلق على الله تعالى إسم الصورة لقوله : [خلق آدم على صورته] .

و فهموا هذا الحديث و هو قوله عليه السلام : [إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه و لا يقلق وجهه و لا وجهه] و شبه وجهه فإن الله خلق آدم على صورته .

فلو كان المراد به الله لكان وجهه سبحانه يشبه وجه هذا المخاصم لأن الحديث كذا جاء - و لا وجهه أشبه وجهه - و رووا حديث خولة بنت حكيم : و إن آخر وطئة وطئها الله بوج و ما علموا النقل و لا السير و قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [اللهم أشدد وطأتك على مضر]

و أن المراد به آخر وقعة قاتل فيها المسلمون بوج و هي غزاة حنين فقالوا : نحمل

الخبر على ظاهره و أن ا [وطئ ذلك المكان .

و لا شك أن عندهم أن ا [تعالى كان في الأرض ثم صعد إلى السماء و كذلك قالوا في قوله [إن ا [لا يمل حتى تملوا] قالوا : يجوز أن ا [يوصف بالملل فجهلوا اللغة و ما علموا أنه لو كانت حتى ههنا للغاية لم تكن بمدح لأنه إذا مل حين يمل فأى مدح و إنما هو كقول الشاعر : .

(جلبت مني هزيل بخرق ... لا يمل الشر حتى يملوا) .

و المعنى لا يمل و إن ملوا .

و قالوا في قوله عليه الصلاة السلام : [الرحم شجنة من الرحمن تتعلق بحقوي الرحمن] فقالوا - الحقوا - صفة ذات و ذكروا أحاديث لو رويت في نقض الوضوء ما قبلت . و عمومها وضعت الملاحظة كما يروى عن عبد ا [بن عمرو و قال : [خلق ا [الملائكة من نور الذراعين و الصدر] فقالوا : ثبت هذا على ظاهره ثم أرضوا العوام بقولهم : و لا ثبت جوارح فكأنهم يقولون فلان قائم و ما هو قائم .

فاختلف قولهم هل يطلق على ا [D إنه جالس أو قائم كقوله تعالى : { قائما بالقسط } . و هؤلاء أخس فهما من جأ لأن قوله { قائما بالقسط } لا يراد به القيام و إنما هو كما يقال : الأمير قائم بالعدل .

و إنما ذكرت بعض أقوالهم لئلا يسكن إلى شيء منها فالحذر من هؤلاء عبادة . و إنما الطريق طريق السلف على أنني أقول لك قد قال أحمد بن حنبل C عليه [من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال] .

فلا ينبغي أن تسمع من معظم في النفوس شيئا في الأصول فتقلده فيه . و لو سمعت عن أحدهم ما لا يوافق الأصول الصحيحة فقل : هذا من الراوي لأنه قد ثبت عن ذلك الإمام أنه لا يقول بشيء من رأيه .

فلو قدرنا صحته عنه فإنه لا يقلد في الأصول و لا أبوبكر و لا عمر Bهما .

فهذا أصل يجب البناء عليه فلا يهولنك ذكر معظم في النفوس .

و كان المقصود من شرح هذا أن ديننا سليم و إنما أدخل أقوام فيه ما تأذينا به . و لقد أدخل المتزهدون في الدين ما ينفر الناس حتى إنهم يرون أفعالهم فيستعبدون الطريق .

و أكثر أدلة هذه الطريق القصاص فإن العامي إذا دخل إلى مجلسهم و هو لا يحسن الوضوء كلموه بدقائق الجنيـد و إرشادات الشبلي فرأى ذلك العامي أن الطريق الواضح لزوم زاوية و ترك الكسب للعائلة و مناجاة الحق في خلوة على زعمه .

مع كونه لا يعرف أركان الصلاة و لا أدبه العلم و لا قوم أخلاقه شيء من مخالطة العلماء .
فلا يستفيد من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الإصطبل .
فأن امتد عليه الزمان في تقا زاد يبسه فربما خايلت له المالخوليا أشباحا يظنهم
الملائكة ثم يطأطئ رأسه و يمد يده للتقبيل .

فكم قد رأينا من أكار ترك الزرع و قعد في زاوية فصار إلى هذه الحالة فاستراح من تعبهِ .
فلو قيل له : عد مريضا قال : مالي عادة فلعن ا عادة تخالف الشريعة .
فيرى العامة بما يورده القصاص أن طريق الشرع هذه لا التي عليها الفقهاء فيقعون في
الضلال .

و من المتزهدين من لا يبالي عمل بالشرع أم لا .
ثم يتفاوت جهالهم فمنهم من سلك مذهب الإباحة و يقول : الشيخ لا يعارض و ينهمك في
المعاصي .

و منهم : من يحفظ ناموسه فيفي بغير علم لئلا يقال : الشيخ لا يدري .
و لقد حدثني الشيخ أبو حكيم C : أن الشريف الدحالي - و كان يقصد فيزار و يتبرك به -
حضر عنده يوما فسأل أبو حكيم : هل تحل المطلقة ثلاثا إذا ولدت ذكرا ؟ قال : .
فقلت : لا و ا فقال لي الشريف : اسكت فو ا لقد أفيتت الناس بأنها تحل من ههنا إلى
البصرة .

و حكى لي الشيخ أبو حكيم : أن جد آذاذ الحداد و كان يتوسم بالعلم جاءت إليه امرأة
فزوجها من رجل و لم يسأل عن انقضاء العدة فاعترضها الحاكم و فرق بينها و بين الزوج و
أنكر على المزوج فلقيته المرأة فقالت يا سيدي أنا امرأة لا أعلم فكيف زوجتني ؟ فقال [
دعي حديثهم ما أنت إلا طاهرة مطهرة] .

و حدثني بعض الفقهاء عن رجل من العباد أنه كان يسجد للسهو سنين و يقول : و ا ما سهوت
و لكن أفعله احترازا فقال له الفقيه : قد بطلت صلاتك كلها لأنك زدت سجودا غير مشروع .
ثم من الدخل الذي دخل ديننا طريق المتصرفه فإنهم سلكوا طرقا أكثرها تنافي الشريعة و
أهل التدين منهم يقللون و يخففون .

و هذا ليس بشرع حتى إن رجلا كان قريبا من زماني يقال له كثير دخل إلى جامع المنصور و
قال : عاهدت ا عهدا و نقضته فقد ألزمت نفسي ألا تأكل أربعين يوما .
فحدثني من رآه أنه بقي عشرة أيام في العشر الرابع أشرف على الموت قال : فما إنقضت حتى
تفرغ فصب في حلقه ماء فسمعنا له نشيشا كنشيش المقلاة ثم مات بعد أيام .
فأنظروا إلى هذا المسكين و ما فعله به جهلة .

و منهم من فسح لنفسه في كل ما يحب من التمتع و اللذات و اقتنع من التصوف بالقميص و الفوطه و العمامة اللطيفة و لم ينظر من أين يأكل و لا من أين يشرب و خالط الأمراء من أرباب الدنيا و لباس الحرير و شراب الخمر حفظا لماله و جاهه .

و منهم أقوام سننا لهم تلقوها من كلمات أكثرها لا يثبت .

و منهم من أكب على سماع الغناء و الرقص و اللعب ثم إنقسم هؤلاء فمنهم من يدعي العشق فيه و منهم من يقول بالحلول و منهم من يسمع على وجه الهوى و اللعب .

و كلا الطريقتين يفسد العوام الفساد العام .

و هذا الشرح يطول و قد صنفت كتباً ترى فيها البسط الحسن إن شاء الله تعالى منها [تلبيس إبليس] .

و المقصود أن تعلم أن الشرع تام كامل فإن رزقت فهما له فأنت تتبع الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه و تترك بنيات الطريق و لا تقلد في دينك الرجال فإذا فعلت فإنك لا تحتاج إلى وصية أخرى .

و إحذر جمود النقلة و إنبساط المتكلمين و جموع المتزهدين و شره أهل الهوى و وقوف العلماء على صورة العلم من غيل عمل و عمل المتعبدین بغير علم .

و من أيده الله تعالى بلطفه رزقه الفهم و أخرجه عن ربة التقليد و جعله أمة وحده في زمانه لا يبالي بمن عبث و لا يلتفت إلى من لام قد سلم زمامه إلى دليله في واضح السبيل .

عصمنا الله و إياكم من تقليد المعظمين و ألهمنا إتباع الرسول صلى الله عليه و سلم فإنه درة الوجود و مقصود الكون صلى الله عليه و سلم و على آله و أصحابه و أتباعه و رزقنا إتباعه مع أتباعه